سورة الليل

مكية، وآياتها إحدىٰ وعشرون ٢/ ٢٦٥ب
[نزلت بعد الأعلى]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾

المغشي: إما الشمس من قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾ [الشمس: ٤] وإما النهار من قوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الرعد: ٣] وإما كلّ شيء يواريه بظلامه من قوله: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣]. ﴿تَجَلَّىٰ﴾ ظهر بزوال ظلمة الليل. أو تبين وتكشف بطلوع الشمس ﴿وَمَا خَلَقَ﴾ والقادر العظيم القدرة الذي قدر على خلق الذكر والأنثى من ماء واحد، وقيل: هما آدم ـ عليه السلام ـ وحوّاء. وفي قراءة النبي ﷺ: «والذكر والأنثى». وقرأ ابن مسعود: «والذي خلق الذكر والأنثى». وعن الكسائي: وما خلق الذكر والأنثى بالجرّ على أنه بدل من محل ﴿مَا خَلَقَ﴾ بمعنى: وما خلقه الله، أي: ومخلوق الله الذكر والأنثى. وجاز إضمار اسم الله لأنه معلوم لانفراده بالخلق[1]. إذ لا خالق سواه. وقيل: إنّ الله لم يخلق خلقًا من ذوي الأرواح ليس بذكر ولا أنثى. والخنثى، وإن أشكل أمره عندنا فهو عند الله غير مشكل، معلوم بالذكورة أو الأنوثة؛ فلو حلف بالطلاق أنه لم يلق يومه ذكرًا ولا أنثى، وقد لقي خنثى مشكلاً: كان حانثًا؛ لأنه في الحقيقة إمّا ذكرًا أو أنثى، وإن كان مشكلاً عندنا ﴿شتىٰ﴾ جمع شتيت، أي: إنّ مساعيكم أشتات مختلفة، وبيان اختلافها فيما فصل على أثره.

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وقد يخرج على توهم المصدر أي وخلق الذكر كقوله [من الطويل]:

تَطُوفُ الْعُفَاةُ بِأَبْوَابِهِ ... كَمَا طَافَ بِالْبَيْعَةِ الرُّاهِبِ

يجر الراهب على توهم النطق بالمصدر أي كطوف الراهب انتهى. والذي يظهر في تخريج البيت أن أصله الراهبي بياء النسب نسبة إلى الصفة ثم خفف وهو قليل. كقوله أحمري ودواري وهذا التخريج بعينه في قول امرئ القيس [من الطويل]:

فَقُلْ فِي مَقِيلٍ نَحْسُهُ مُتَغَيِّبِ

كما استشهد به الكوفيون على تقديم الفاعل. انتهى. الدر المصون.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾

﴿أَعْطَىٰ﴾ يعني حقوق ماله ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ الله فلم يعصه ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ بالخصلة الحسنى: وهي الإيمان. أو بالملة الحسنى: وهي ملة الإسلام، أو بالمثوبة الحسنى: وهي الجنة ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ فسنهيؤه لها من يسر الفرس للركوب إذا أسرجها وألجمها. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «كل ميسر لما خلق له» (١٧٥٩) والمعنى: فسنلطف به ونوفقه حتى تكون الطاعة أيسر الأمور عليه وأهونها[1]، من قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾

﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ وزهد فيما عند الله كأنه مستغن عنه فلم يتقه. أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الجنة، لأنه في مقابلة ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾. ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ فسنخذله ونمنعه الألطاف، حتى تكون الطاعة أعسر شيء عليه وأشده، من قوله: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] أو سمى طريقة الخير باليسرى، لأنّ عاقبتها اليسر؛ وطريقة الشرّ العسرى، لأن عاقبتها العسر. أو أراد بهما طريقي الجنة والنار، أي: فسنهديهما في الآخرة للطريقين. وقيل: نزلتا في أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ، وفي أبي سفيان بن حرب ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ﴾ استفهام في معنى الإنكار. أو نفي ﴿تَرَدَّىٰ﴾ تفعل من الردى وهو الهلاك، يريد: الموت. أو تردّى في الحفرة إذا قبر، أو تردّى في قعر جهنم.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣﴾

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢﴾ إن الإرشاد إلى الحق واجب علينا بنصب الدلائل[2] وبيان

١٧٥٩ ـ أخرجه البخاري (٩/٧٢٦) كتاب التفسير باب فسنيسره للعسرى حديث (٤٩٤٩) ومسلم (٤/ ٢٠٣٩ ـ ٢٠٤٠) كتاب القدر باب كيفية خلق الآدمي حديث (٦/٢٦٤٧).
قال الحافظ: متفق عليه من حديث عمران بن حصين، ومن حديث علي رضي الله عنه. انتهى.

---

(١) قال محمود: «التيسير لليسرى خلق الألطاف... إلخ» قال أحمد: ألا يطيل لسانه ههنا على أهل السنة ولكن قصره الحق فتراه يزول الكلام بل يعطله، لأنه يحمله ما لا يحتمله، وعلى كلامه في أمثالها روعة السارق الخائف.

(٢) قوله: «له واجب علينا بنصب الدلائل» وجوب شيء على الله تعالى: مذهب المعتزلة. ولا يجب عليه شيء عند أهل السنة، ولكن شأن الكريم تأكيد الوعد. (ع)

الشرائع ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ أي: ثواب الدّارين للمهتدي، كقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾

وقرأ أبو الزبير: تتلظى فإن قلت: كيف قال: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى . . . . . وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾؟ وقد علم أنّ كل شقيّ يصلاها[1]، وكل تقي يجنبها، لا يختص بالصلي أشقى الأشقياء، ولا بالنجاة أتقى الأتقياء، وإن زعمت أنه نكر النار فأراد نارًا بعينها مخصوصة بالأشقى، فما تصنع بقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾؟ فقد علم أن أفسق

---

(١) قال محمود: «فإن قلت: كيف قال لا يصلاها إلا الأشقى وسيجنبها الأتقى، وقد علم أن كل شقي يصلاها. . . إلخ» قال أحمد: لا شك أن السائل بنى سؤاله على التمسك بمفهوم الآية لورودها بصيغة التخصيص، فحاصل جواب الزمخشري أن التخصيص ههنا لفائدة أخرى غير النفي عما عدا المخصص، وتلك الفائدة المقابلة؛ وحيث تمحض لك السؤال والجواب، فهو يلاحظ نظر الشافعي ـ رحمه الله ـ في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ فإنه لم يقل بمفهوم حصرها، وحملها على أن الحصر لفائدة المقابلة بالرد لأحكام الجاهلية، لا لنفي ما عدا المحصور. على أن الزمخشري إنما ضيق عليه الخناق في هذه الآية حتى التزم ورود السؤال المذكور. التفاته إلى قاعدته الفاسدة وحذره أن تنقض، ويأبى الله إلا نقضها ورفضها، وإذا نزلت الآية على قواعد أهل السنة وضح لك ما قلته، فنقول: المصلى في اللغة أن يحفروا حفيرًا فيجمعوا فيه جمرًا كثيرًا، ثم يعمدوا إلى شاة فيدسوها وسطه بين أطباقه؛ فأما ما يشوى فوق الجمر أو على المقلى أو على التنور فليس بمصلى، وهذا التفسير بعينه نص عليه الزمخشري ونقله عن أهل اللغة في سورة الغاشية أيضًا، وأنا وقفت عليه في كتبهم؛ فإذا عرفت معنى التصلية لغة وأنها أشد أنواع الإحراق بالنار، وفي علمك أن الناس عند أهل السنة ثلاثة أصناف: مؤمن صالح فائز، ومؤمن عاص، وكافر، وأن المؤمن الفائز يمر على النار فيطفئ نوره لهبها ولا يؤلم بمسها ألبتة، وإنما يردها تحلة القسم، والعاصي إن شاء الله تعذيبه ومجازاته فإنما يعذب على وجه النار في الطبقة الأولى باتفاق، حتى أن منهم من تبلغ النار إلى كعبه: وأشدهم من تبلغ النار إلى موضع سجوده فيحسه؛ ولا يعذب أحد من المؤمنين بين أطباقها ألبتة بوعد الله تعالى، والكافر هو المعذب بين أطباقها: تبين لك أن النار لا يصلاها أي يعذب بين أطباقها ـ كما علمت تفسيره في اللغة ـ إلا الكافر: وهو الأشقى؛ لأن المؤمن العاصي لا يبلغ مبلغه في الشقاء، وأن المؤمن الفائز وهو الأتقى بالنسبة إلى المؤمن العاصي يجنب النار بالكلية، لأن وروده تحلة القسم لا يصل إليه مسها ولا ألمها، وأن المؤمن العاصي الذي ليس بالأتقى ولا بالأشقى لا يصلاها ولا يجنبها بالكلية؛ لأن وروده تحلة القسم بل يعذب فيها لا بالصلى؛ فهذا أحسن ما حملت الآية عليه، لكن إنما ينزل على جادة السنة. وأما الزمخشري فينحرف عنها، فلا جرم أنه في عهدة الجواب يفكر ويقدر. والله أعلم.

المسلمين[1] يجنب تلك النار المخصوصة، لا الأتقى منهم خاصة؟ قلت: الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين فقيل: الأشقى، وجعل مختصًا بالصلي، كأن النار لم تخلق إلاّ له. وقيل: الأتقى، وجعل مختصًا بالنجاة، كأن الجنة لم تخلق إلاّ له. وقيل: هما أبو جهل أو أمية بن خلف، وأبو بكر ـ رضي الله عنه ـ ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ من الزكاء. أي: يطلب أن يكون عند الله زاكيًا، لا يريد به رياء ولا سمعة. أو يتفعل من الزكاة. فإن قلت: ما محل يتزكى؟ قلت: هو على وجهين: إن جعلته بدلاً من ﴿يُؤْتِي﴾ فلا محل له؛ لأنه داخل في حكم الصلة، والصلات لا محل لها وإن جعلته حالاً من الضمير في ﴿يُؤْتِي﴾ فمحله النصب ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ﴾ مستثنى من غير جنسه وهو النعمة أي: ما لأحد عنده نعمة إلاّ ابتغاء وجه ربه، كقولك: ما في الدار أحد إلاّ حمارًا. وقرأ يحيى بن وثاب: «إلا ابتغاء وجه ربه» بالرفع: على لغة من يقول: ما في الدار أحد ألا حمار وأنشد في اللغتين قول بشر بن أبي حازم ٢/٢٦٦أ [من البسيط]:

أَضْحَتْ خَلايا قِفَارًا لاَ أَنِيسَ بِهَا ... إِلاَّ الْجَآذِرُ وَالظَّلْمَانُ تَخْتَلِفُ[2]

وقول القائل [من الرجز]:

وَبَلْدَةٍ لَيْسَ بِهَا أَنِيسُ ... إِلاَّ الْيَعَافِيرُ وَإِلاَّ الْعِيسُ[3]

---

(١) قوله: «فقد علم أن أفسق المسلمين» لعله: وقد. (ع)

(٢) أضحت خلايا قفارًا لا أنيس بها ... إلا الجآذر والظلمان تختلف
وقفت فيها قلوصي كي تجاوبني ... أو يخبر الرسم عنهم أية انصرفوا؟

لبشر بن أبي خازم. وخلايا: جمع خلية أي خالية، والجآذر والظلمان استثناء منقطع، لأنها لا تدخل في الأنيس. وروي بالنصب على الاستثناء، وبالرفع على الإبدال من الضمير المستكن في الخبر، كما هو لغة عند تميم. والجآذر: أولاد بقر الوحش. وروي: الجوازئ، وهي الظباء التي اجتزأت بأكل الربيع عن شرب الماء. والظلمان: أولاد النعام. أو النعام نفسه. والقلوص: الفتية من الإبل المكتنزة اللحم، والضمير فيها عائد للديار. وضمير «تجاوبني» لها أيضًا. والرسم: آثار الديار. وأية: اسم استفهام منصوب بما بعده على الظرفية، لقطعه عن الإضافة، أي: صرفهم عزمهم ونيتهم. وشبه الرسم بعاقل على طريق المكنية فأسند له الأخبار تخييلاً، وكذلك الدار ومجاوبتها.
ينظر: البحر ٨/ ٤٨٤، الدر المصون ٦/ ٥٣٦.

(٣) قد ندع المنزل يا لميس ... يعيش فيه السبع الجروس
وبلدة ليس بها أنيس ... إلا اليعافير وإلا العيس

لعامر بن الحارث المشهور بحران العود. ولميس: امرأة. والجروس: كثير الصوت، وبلدة ـ بالجر برب المقدرة بعد الواو، أي: قد نترك المنزل خاليًا من أهله بقتلنا إياهم، أو لارتحالنا عنهم. واليعافير ـ بالرفع ـ: بدل من أنيس على لغة تميم في الاستثناء المنقطع بعد النفي، وإلا الثانية توكيد =

ويجوز أن يكون ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ﴾ مفعولاً له على المعنى، لأنّ معنى الكلام: لا يؤتي ماله إلاّ ابتغاء وجه ربه، لا لمكافأة نعمة ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾ موعد بالثواب الذي يرضيه ويقرّ عينه.

وعن رسول ﷺ: «من قرأ سورة والليل، أعطاه الله حتى يرضى، وعافاه من العسر ويسر له اليسر» (١٧٦٠).

١٧٦٠ ـ تقدم برقم (٣٤٦): قال الحافظ: أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بالسند إلى أبي بن كعب. انتهى.
وقال الحافظ: متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله البجلي بلفظ: «فجاءت امرأة فقالت يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك. فأنزل الله (والضحى)» وفي المستدرك من حديث زيد بن أرقم «أن النبي ﷺ مكث أيامًا لا ينزل عليه. فأتته امرأة أبي لهب فقالت: يا محمد» ـ فذكره نحوه.
قال محمود: «إن قلت: كيف اتصل بما قبله؟ وأجاب بأنه لما كان في ضمن التوديع وأتلى أن الله مواصلك بالوحي إليك. . . . إلخ» قال أحمد: وإخراج أهل الكبائر من النار بشفاعته مضاف إلى ذلك.
قوله: «من الفلج والظفر» الفلج: أي الظهور والفوز والقهر، كما يفيده الصحاح. (ح) انتهى.

= للأولى. واليعافير ـ جمع يعفور ـ: دابة قدر السخلة على لون الرماد. وقيل: غزال كذلك. وقيل: ولد البقرة الوحشية. والعيس: البيض من الظباء أو الإبل: جمع أعيس أو عيساء. والعيساء أيضًا: أنثى الجراد، يخالط بياضها شقرة.
ينظر: الصبان ٢/١٤٧، البحر: ٨/٤٨٤، الدر المصون ٦/٥٣٦.